



المحاضرة التاسعة : التحرش والجريمة الالكترونية

إن دراسة الجريمة الإلكترونية لا تكتمل بالنظر إلى "الثغرات التقنية" فحسب، بل بالبحث في "الثغرات الأخلاقية". سنستعرض اليوم كيف انتقل مفهوم التحلل الأخلاقي (Moral Disengagement) من سياقه المادي التقليدي إلى سياقه الرقمي المعاصر، وكيف يفسر لنا العلم تحوّل الفرد السوي إلى ممارس للعنف خلف الشاشات.

التحلل الأخلاقي الرقمي

يُعد مفهوم التحلل الأخلاقي من المفاهيم المركزية في تفسير السلوك العدواني في البيئة الرقمية. يشير Albert Bandura إلى أن الأفراد قادرون على تعطيل أنظمتهم الأخلاقية الداخلية عبر آليات معرفية مثل التبرير الأخلاقي لإزاحة المسؤولية نزع الإنسانية عن الضحية وفي الفضاء الرقمي، تتعزز هذه الآليات بفعل ما يُعرف بتأثير الانفصال عبر الإنترنت حيث يؤدي غياب المواجهة المباشرة، وإخفاء الهوية، إلى انخفاض مستوى التعاطف الوجداني. هذا لا يعني غياب الأخلاق، بل "تخليتها مؤقتاً"، مما يسمح للفرد بممارسة سلوكيات قد يرفضها تماماً في الواقع المباشر.

وعليه، فإن الجريمة الإلكترونية (كالتحرش الرقمي أو الابتزاز) لا تُمارس فقط كفعل تقني، بل كـ"سلوك مُعاد تأطيره أخلاقياً"، حيث يُنظر إلى الضحية ككيان افتراضي مجرد، لا كإنسان كامل المشاعر.

التحرش الرقمي

التحرش، في جوهره، ليس مجرد سلوك منحرف، بل هو اختلال في البنية الإدراكية للعلاقة مع الآخر. في السياق الرقمي، يتخذ هذا الاختلال أبعاداً أكثر تعقيداً:

- **التشويش:** حيث يتم اختزال الآخر إلى موضوع للإشباع أو السيطرة، وهو ما تناولته دراسات علم النفس الاجتماعي المعاصر .
- **انهيار الضوابط الثقافية:** الفضاء الرقمي يتجاوز الرقابة الأسرية والمجتمعية، مما يضعف ما يمكن تسميته بـ"المناعة الأخلاقية الجمعية".
- **إعادة تشكيل الحياء:** الحياء، بوصفه آلية ضبط داخلية، يتعرض لإعادة تعريف في البيئة الرقمية، حيث تصبح الجرأة المفرطة أو التعدي اللفظي "مقبولاً ضمنياً" في بعض المجتمعات الافتراضية .

سيكولوجية المشاهد الصامت

لا تكتمل أركان الجريمة الإلكترونية إلا بوجود "جمهور افتراضي" يراقب في صمت؛ وهذا ما يُعرف بـ "تأثير المتفرج" فوجود مئات أو آلاف المتابعين لواقعة تحرش أو ابتزاز يؤدي إلى حالة من "توزع المسؤولية"، حيث يشعر كل فرد أن مسؤوليته الأخلاقية للتدخل قد انقسمت على عدد المشاهدين حتى تلاشت تماماً. هذا "الصمت الرقمي" ليس محايداً، بل هو وقود للمعتدي؛ إذ يُفسره العقل الجمعي كقبول ضمني، بل إن "الإعجابات" أو "المشاركات" تعمل كمحفزات اجتماعية تمنح المجرم شعوراً بـ "البطولة الزائفة". إن هذا المشاهد الصامت يعاني هو الآخر من نوع من التحلل الأخلاقي، حيث يبرر لنفسه عدم التدخل بحجة أن "شخصاً آخر سيقوم بذلك"، مما يحول المجتمع الرقمي من بيئة حماية إلى ساحة مفتوحة للاستباحة.

الدونة العصبية السلبية و"تخدير" حاسة التعاطف

من الناحية البيولوجية العصبية، يؤدي الانغماس المستمر في بيانات رقمية عنيفة إلى إحداث تغييرات في "توصيلات الدماغ" فيما يُعرف بـ الدونة العصبية السلبية. إفتكرار مشاهدة العدوان الرقمي أو ممارسته يؤدي إلى حالة من "فقدان الحساسية الوجدانية" حيث تتوقف مراكز الألم والتعاطف في الدماغ عن الاستجابة للأذى الواقع على الآخرين. وبمرور الوقت، يحدث نوع من "التخدير العصبي"؛ فلا يعود مشهد الانتهاك يثير الاشمئزاز أو الغضب، بل يصبح مادة عادية للاستهلاك اليومي. هذا الضمور في الاستجابة الوجدانية للألم البشري هو أخطر مراحل "التحلل الأخلاقي"؛ لأنه يعني أن الحواجز الفطرية التي خلقها الله في النفس البشرية لمنع الأذى قد تآكلت مادياً وعصبياً، مما يجعل العودة إلى "الفطرة السليمة" تتطلب جهداً تأهلياً شاقاً لاستعادة القدرة على التعاطف الإنساني.

التعافي الرقمي: كيف نستعيد إنسانيتنا خلف الشاشات؟

إن الختام الحقيقي لمواجهة العنف الرقمي ليس في وضع "كلمات مرور" أقوى، بل في بناء "ضمير رقمي" أصلب. تبدأ رحلة التعافي بما نسميه "إعادة الأنسنة"؛ وهي عملية واعية تُذكر فيها أنفسنا والأجيال الجديدة بأن كل حساب نراه على الشاشة ليس مجرد اسم أو صورة أو أرقام، بل هو إنسان كامل، له مشاعر تُجرح، وكرامة تُنتهك، وعائلة تتألم لألمه.

ولتحقيق ذلك، نحتاج إلى تفعيل "الذكاء الأخلاقي الرقمي" عبر خطوات عملية:

- **قاعدة "المواجهة":** "قبل أن تكتب تعليقاً أو ترسل رسالة، اسأل نفسك: "هل كنت سأجرؤ على قول هذا الكلام وجهاً لوجه؟". إذا كانت الإجابة (لا)، فأنت في حالة "تحلل أخلاقي" وعليك التوقف فوراً.
- **إحياء "حاسة التعاطف":** "تدريب النفس على تخيل الأثر النفسي للكلمات قبل نشرها؛ فخلف الشاشة قلب ينبض وليس مجرد بكسلات ملونة.
- **المسؤولية الجماعية:** الانتقال من دور "المشاهد الصامت" إلى "المصلح الرقمي"؛ فالبطولة اليوم هي في الوقوف ضد التمرر وحماية الضحايا، واستشعار أن الله يراقبنا في "خلوتنا الرقمية" كما يراقبنا في العلن.